مالابد منه (*)

قلنا ولا نزال نقول ان التربية والتعليم هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء السعادة ، والعاملان الرافعان الى قنة السيادة ، وهما أمران متلازمان لا يفارق أحدهما الآخر الا اذا أمكن وجود العمل من غير علم العامل بما يعمل . التعليم افادة العلم — أيّ علم — والتربية هي القيام بشؤون الصغير حتى يميز ويقدر على العمل ، وارشاده الى وجه الصواب في العمل عند القدرة عليه ، وفهمه مايلقى اليه ، حتى يتم له رشده ، ويكمل له عقله ، وهذا لا يحصل الا بالعلم النافع ، فالعلم هو الينبوع الذي يستمد منه القائمون بالتربية والتعليم ، العلم كثير والعمر قصير فلا يمكن ان يحصل جميع أفراد الامة جميع العلوم ولو استغرقوا جميع الاوقات ، وتركوا الاعمال وهي المقصودة بالذات ، فما هي العلوم والفنون التي لابد منها لجميع الافراد ، ولاتسع جهالتها واحدا من الآحاد ؟

ان الشريعة الاسلامية قسمت العلوم التي فرضت على الامة تعلمها الى قسمين — واجب عيني وواجب كفائي — فالاول مايطلب من كل فرد من أفراد الامة ذكرانها واناثها كالفنون الباحثة عن تصحيح الاعتقاد وتهذيب الاخلاق وتطهير النفوس وكيفية العبادات وماهو الحلال ليتقى والحرام ليتقى

والثاني ما يطلب من مجموع الامة لتقوم بالمصلحة العامة فاذا قام به

(*) راجع المجلد الثاني الصادر في ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٣١٦ .

كل قطر من الاقطار طائفة يكفون الامة ما تحتاجه منه سقط الحرج عن الباقين والا حرجت الامة كلها وكانت آثمة، واذا أثمت الامة كلها نزل بها البلاء وحل بها السخط الذي يقتضيه ذلك الاثم الكبير الذي ضاعت به المصلحة العامة ولكل ذنب بلاء على قدره، وذنوب الامم لا ينالها العفو ولا ترجأ عليها العقوبة كما هو مشاهد «وكذلك أخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة، ان أخذه أليم شديد»

المصالح العامة مابها قوام الدين كالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلوم التفسير والحديث والاصول والفقه الخ ماهو مشهور، وما بها قوام الدنيا كالزراعة والصناعة والطب والحساب والهندسة الخ ماهو معروف، وقال العلماء لا يكون الانسان كاملا في علمه حتى يأخذ من كل فن من الفنون المتداولة في عصره طرفا يعرف به موضوع الفن وفائدته ونسبته لغيره من الفنون لكيلا يعادي العلم ويذاكر اهله عن جهل ويحكم عليه خطأ ثم يصرف همه الى التوسع في العلم الذي يريد العمل به والانفراد فيه

وكأين من علم يكون في عصر من العصور من الكماليات فيصير في عصر آخر من الضروريات كعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) الذي كان في عهد العباسيين تقصد به اللذة اكثر مما تقصد به الفائدة (كعلم الهيئة الفلكية حتى الآن) وقد أصبح اليوم من الضروريات التي لا بد منها، سعدت بالتوسع فيه دول ساعدها على الاستواء على البلاد، والاستيلاء على العباد، من غير سيوف تسل، ونفوس تسيل، وبدون مدافع تسائل، وصياصي تجيب، وشقيت بالتقصير فيه امم فهبت بلادها من ايديها من غير أن تشعر،

وجاس العدو ديارها تحت مواقع انظارها ولم تبصر ، نعم يتوقف اليوم على هذا العلم الحرب والجهاد، وسياسة الممالك والبلاد، فهو دعامة الحرب وأساسها، ومعيار السياسة وقسطاسها ، وكذلك الهندسة والفلسفة الطبيعية وفنون أخرى

جرت الامم القوية في التربية والتعليم على طرق لا مندوحة لنا عن محاكاتها فيها ومجاراتها عليها كماً وكيفاً، مع اعتبار حالة بلادنا الدينية والاجتماعية، ومراعاة مقدرتنا المالية والعلمية، لا ننا نعلم أن عزة تلك الدول وتقدمها على نسبة تقدم التربية والتعليم فيها . ومن يلاحظ سير الامم والدول في هذا العصر ويقيسه بمقياسه ، ويزن تقدمها وتأخرها بميزانه ، يتجلى له بالبرهان الرياضي الصحيح أن ذلك لا بد أن ينتهي بفناء بعضها وتلاشيه، وبلوغ بعضها من مراتب الوجود الممكن أقاصيه وأعاليه ، الا اذا عثر المجد وكبا الجواد، أونهض العاثر من سقطته وجد المتخلف، واذا وقع الامران معا فذلك التوفيق ، القاضي بسعادة فريق لشقاء فريق ، ولا نيأس من روح الله في انالة أمتنا من ذلك ما تتمناه . شعر بهذا بعض خاصتنا فطفقوا يلهجون بالتعليم والتعلم وسرى هذا الشعور في كثير من العامة ولكنه شعور اجمالي لا يشرح الحقيقة ولا يهدي الى محجة الصواب . يذهب كثير ممن يسعون بانشاء المدارس وتعميم التعليم الى ان العلم الذي يكفل السعادة للائمة هو ما يعلم في مدارس الحكومة كبعض اللغات الاجنبية والفنون الرياضية والطبيعية والقوانين الاوربية الذي يؤهلهم للوظائف لان السواد الاعظم منا يرى ان الغاية من العلوم والفنون

خدمة الحكومة بمعنى ان يكون للانسان وظيفة فيها تعطيه مالا يعيش منه وجاها يعتز به، ولا يبالي مع ذلك بأي محل ظهر وبأي لون اصطبغ، ومن يحو بتعليمه هذا المنحى فهو جاهل، ومن يرمي بتعليمه الى هذا الغرض فهو خاسر، لانه غرض خسيس لا يتجاوز المنفعة الشخصية، ولا يبالي صاحبه بشقاء الامة بل ولا بفنائها اذا كان وسيلة لمصلحته وطريقا لمنفعته، وأجدر بتعليم هذا شأنه أن يعد من البلاء لا من النعماء، وان يرغب عنه ولا يرغب فيه، وان يسعى في ازالته لا في انالته . والغاية الصحيحة التي نقصدها نحن وجميع العقلاء من التربية والتعليم هي التي شرحناها في مقالة (الى أي تربية وتعليم نحن أحوج) من العدد السادس عشر أعني ما يجعلنا أمة عزيزة سعيدة يحافظ كل فرد منها على جامعته الجنسية والدينية والوطنية، ويشرب في قلبه ان ما أصاب أمته من حسنة فنعمتها شاملة له، وما أصابها من سيئة فمرتها لاحقة به، ولقد قال أستاذنا الاكبر العلامة الشيخ محمد عبده كلمة بليغة في العلم الذي نحن أحوج اليه لاسعادنا وهي « العلم ما يعرفك من أنت ممن معك » وانها لكلمة حكيمة لمن وعاها وما يعقلها الا العالمون

وانما نذكر في هذه المقالة « مالا بد منه » من العلوم لكل فرد من أفراد الامة بحسب ما تقتضيه حالة العصر فنقول

(١) علم أصول الدين أعني علم ما هي القضايا الاساسية للدين وما أدلتها وما وجه الحاجة اليه، وماذا كان من أثره وفائدته في العالم، لا البحث في غوامض علم الكلام كالوجود هل هو عين الموجود أو غيره، والصفات هل هي عين الذات أو غيرها أولا عينها ولا غيرها، ولا ما ألحق به

توسعا في البحث وانطلاقاً مع الخواطر والافكار وليس منه ، كقول بعضهم ان خوارق العادات تصدر من جميع أصناف الناس مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وفاسقهم . وانما تترك أمثال هذه المباحث للذين يحبون الانفراد بالتوسع في الفن ومعرفة كل ما قيل فيه ، ولا فائدة منها للجماهير الا تهويش الاذهان ، وربما أضرت بالعقول والاديان

(٢) علم تهذيب الاخلاق واصلاح العادات فهو العون على التربية الصحيحة ويحتاج في كماله الى الفلسفة العقلية وعلم النفس

(٣) علم فقه الحلال والحرام والعبادات (ويسميه الاتراك علم حال) وانما فقهها أن تعرف على الوجه الذي تحصل به فائدتها للعامل بها ، كأن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لما تعطيه من مراقبة الله تعالى وخشيته ، ويكف الصوم عن الشهوات ويبعث على الشفقة ، وتمنع الحيلة في الزكاة وتعطي عن طيب نفس مع معرفة فائدتها في اصلاح حال الهيئة الاجتماعية والقيام بحقوق الانسانية ، ويلاحظ في الحج فائدة المساواة بين الناس حيث يقفون في صعيد واحد بهيئة واحدة لا زينة معها ولا طيب ولا فرق فيها بين ملك ومملوك وعظيم وصعلوك «سواء العاكف فيه والباد» . وفائدة التعارف بين المسلمين والاخاء حيث يجتمع في تلك الاماكن المقدسة العربي والتركي والفارسي والهندي والصيني الخ ويتآخون في الله تعالى . واني رأيت المسلمين لا يزالون يلاحظون معنى الاخاء في الحج ويسمون من يتعرفون به هنالك أخا ونعما هي

وفائدة تمثلهم بهيئة الاموات الخارجين من الدنيا ، ومشاهدة الله تعالى على التوبة والانابة والبر والتقوى ، وفائدة الخضوع والامتثال لامر الله

تعالى ولو فيما لا يعقلون له معنى ولا يعرفون له فائدة ، كرمي الجمار وتقبيل الحجر الذي لا ينفع ولا يضر كما قال عمر رضي الله تعالى عنه

(٤) علم الاجتماع وأحوال البشر في بداوتهم وحضارتهم ومللهم ونحلهم وعاداتهم وسائر شؤونهم

(٥) علم تقويم البلدان « الجغرافيا » وقد مر بك الايماء الى فائدته وعظيم شأنه

(٦) علم التاريخ وينبغي أن يتوسع كل أحد في معرفة تاريخ أمته وملته وبلاده ، وأن يأخذ طرفا من التاريخ العام . والتاريخ ولا أزيدك به علما هو مادة السياسة وعمد العقل ومغذيه ، والمفيض على الارواح حب الجنس والوطن ، والهادي النفوس الى مصالح بلادها والمحافظة على استقلالها

(٧) علم الاقتصاد الذي يبحث عن انماء الثروة وحفظها وهو من أركان المدنية الحاضرة وما أضر بهذه البلاد (المصرية) الا البعد عن العلم والعمل بالاقتصاد ولما كان هذا العلم من مقومات الامم والدول سمي (علم الاقتصاد السياسي)

(٨) علم تدبير المنزل وينبغي ان تتوسع البنات في هذا العلم لانه وظيفتهن ، والعمل به منوط بهن ، وجهلهن به داعي الخلل في المعيشة ، ومن لم تكن أمور منزله منتظمة فلا عيش له وان ملك الدنيا بحذافيرها

(٩) علم الحساب ولا بد من معرفة القدر اللازم منه للبنين والبنات ويتوسع فيه الذكور لان الاعمال المالية الكبرى انما تناط بالرجال .

(١٠) علم حفظ الصحة « الهيجين » وهذا من أهم المهمات لتربية الاولاد وهناء العيش ، فكم أسقم الجهل به صحيحاً وأمات مريضا ، وكم فتك

بالاطفال فتلك الاوبئة والادواء، ومن نظر الاحصاآت الصحية في البلاد المتمدنة يعلم فائدة انتشار العلوم الطبية في الصحة العمومية

(١١) علم لغة البلاد. ترى الافرنج الذين يفتخر كبراؤنا ومدعو التمدن فينا بتقليدهم عن جهالة وعماية يفتخرون بلغاتهم ويدأبون على خدمتها ويسعون في تعميمها، وقد جعلوها مناط الجنسية فهلا قلدوهم في ذلك عوضا من تقليدهم في تعلم لغتهم ! ! ؟ ؟ . للغتنا العربية علينا من الحق ما للغة الانكليزية على الانكليز والفرنساوية على الفرنساويين، ولها حق آخر علينا هو أقدس من سائر الحقوق يوجب علينا إحياءها حتما وهو حق الدين الذي لا يمكن حفظه الا بها، وهو ركن سعادتنا الدنيوية والاخروية. لست أعني بتعلم اللغة الذي جعلته مما لا بد منه لكل فرد من أفراد الامة حفظ متونها ومعاجمها، ومدارسة كتبها الازهرية بحواشيها وتقاريرها، فان ذلك ربما يمضي العمر على متوخيه بغير ثمرة ولا فائدة، وانما أعني أن يدرس التلامذة جميع ما يتعلمونه بلغة عربية فصيحة، وان يتدارسوا الكلام العربي البليغ منظوما ومنثورا مع التفهم لمعانيه، وملاحظة أساليبه ومناحيه، لتنطبع في نفوسهم ملكة صحيحة يقتدرون بها على الاتيان بمثل ذلك الكلام بسهولة، ويضاف الى هذا تلقينهم كتبا مختصرة سهلة في النحو والصرف والمعاني والبيان بالطريقة المفيدة، وكل هذا يمكن تحصيله في مدة وجيزة اذا كانت الكتب سهلة والمعلم حاذقا حكيما، فان قيل وأنى يوجد هذا وذاك؟ أقول متى وجد الطالب يوجد المطلوب

(١٢) فن الخط ولا تخفى فائدته على أحد.

يؤخذ من هذه الفنون القدر اللازم، ولا بد مع تعلمها من الوقوف

على مواضيع العلوم المتداولة في العالم وفوائدها وبعض مسائلها في الجملة كما ألمعنا الى ذلك آنفاً، ليكون كل فرد على بصيرة من حالة عصره ولان العلوم والفنون يتداخل بعضها ببعض ويعد بعضها بعضاً، وما وراء الذي شرحناه كالعلوم والفنون التي عليها مدار ترقي الصناعة والزراعة والتجارة فيجب ان ينفرد لها طوائف من الامة، وحيث كان التوسع فيها يتوقف على الاستعانة بكتب الافرنج الذين أتقنوها وجنوا ثمارها فينبغي أن يتعلم بعض لغات أولئك الاقوام طائفة منا لاجل ترجمة الكتب المفيدة في تلك العلوم

هذا ما عن لنا في هذا المقام كتبناه على طريق الاجمال، فاذا سار عليه القائمون بتشييد المدارس نرجو أن يكون سعيهم مؤديا لسعادة الامة والوطن، والا كان اغواء واضلالا ووبالا ونكالا، فقد جربنا التعليم بغير الصبغة الدينية فما زادنا الا بلية ورزية، ونرجو ممن رأى في كلامنا هذا منتقداً ان ينبهنا اليه، وربما نعود الى الموضوع في فرصة أخرى والله الموفق

رسالة الحاسد والمحسود

(للجاحظ)

نقلناها عن نسخة بخط علي بن هلال الكاتب المقروء

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أطال الله بقاءك، وجعل الله لك السلامة وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة ودفع عنك الندامة